



► الصبر قلعة حصينة لا يقتحمها جيش، ولا يدخلها عدو، والصبر جُنْدٌ حصينة لا ينفذها سهم، ولا يلجهها نبل. الصبر مجايدة الإحباط، ومراغمة الفشل، ومنازلة الخطوب. الصبر قبض على الجمر، وستر للجرح، وكتمان للمصيبة، وتنسم للهواء، الصبر زاد لا ينفد، ومعين لا ينضب، وصاحب لا يمل. لا يُعالج خور الطبيعة إلا بالصبر، ولا يُهــمــد جرح النفس إلا بالصبر، إنَّ الصبر مسلاة للهموم، ومســرــة للمغموم، وروح للمنهك، وعزاء للمصاب. إذا كان معك الصبر فلا عليك من عدد العدو وعتاده، ولا مــنــ نــارــهــ وزــنــادــهــ، وتلقــ الخطــوبــ الــكــواــلــحــ وأــنــتــ صــاحــكــ، وصارــعــ النــكــباتــ الدــهــمــ وــأــنــتــ باــســمــ:

من أضــجــاتــ قــلــبــهــ الأــزــمــاتــ فــدــوــاــوــهــ الصــبــرــ، وــمــنــ أــدــمــتــ عــيــنــيــهــ النــكــبــاتــ فــضــمــاــدــاــهــ الصــبــرــ. تــأــتــيــ الــكــرــبــاتــ طــلــمــاــنــ بعضــهاــ فــوــقــ بــعــضــ عــاصــفــةــ نــاســفــةــ قــاــصــفــةــ فــيــأــتــيــ الصــبــرــ فــيــكــشــحــهــ. يــتــأــلــفــ الــحــســادــ وــالــشـــامــتــوــنــ عــلــىــ الــمــصــابــ الــمــنــكــوبــ فــيــطــوــفــ عــلــيــهــمــ طــائــفــ مــنــ الصــبــرــ إــذــاــ هــوــ يــلــقــفــ مــاــ يــأــفــكــونــ.

يــوــمــ لــاــ قــرــيــبــ يــوــاــســيــ، وــلــاــ صــدــيقــ يــعــزــيــ، وــلــاــ صــاحــبــ يــتــفــجــعــ، يــنــوــبــ الصــبــرــ عــنــ الــجــمــيــعــ، وــيــتــكــلــمــ بــلــســانــ الــكــلــ، وــيــؤــدــيــ وــاجــبــ الصــحــبــةــ وــالــقــرــابــةــ. وــالــصــبــرــ الــجــمــيــلــ لــاــ شــكــوــيــ فــيــهــ فــلــاــ يــخــدــشــ وــجــهــ

محاسنه اعتراض ولا يلثم تاجه تسخط. والصبر الجميل سكون للقضاء، واطمئنان للعقوبة، وانتظار للفرج، واحتساب للأجر. وقد يقعُ الصبرُ ولكن لا يكون جميلاً فلا يكتم صاحبه شكوى، ولا يسر حديثاً، ولا يدع معاشرة. الصبر غير الجميل تحمّل مع أنيس، وتجلد مع تكلاً، وتصبر بلا تحمل، ولكن الصبر الجميل هو حِمْل المصيبة بصمت، وتلقّي الفاجعة بسكون، وتقبّل الصدمة برضاء. لا يجد الشامت دليلاً على المصائب يُدان به، ولا يرى الحاسد أثراً للنكبة على المنكوب، فيرقص طرّباً. وما يعين على الصبر الجميل: اعتقاد فساد الحيلة في دفع القدر، وصحة العاقبة لمن احتسب وصبر، والنظر فيما بقي من الخلف في النفس والولد والدين والمال، ومشاهدة خيام أهل البلاء، ومطالعة أدوية المصائب، ففي كلّ وادٍ بنو سعد، وما خلت جيبة من مصيبة، ومع كلّ فرح ترح، وعند الحيرة عبر (ولَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى) (الأحقاف/ 27)، ومن شاء أن يطالع دفتر الخليقة، منذ النشأة ليري النكبات تترى، والمصابات تتتساقط، ما بين مقتول ومذول، ومعزول ومبتول، وما بين صائح وناائح، وطائج وغريق، وحريق وسحيق، دول زالت، ملوك ذلت، قصور هوت، جيوش أبيدت، قرون سلفت، حدائق ذابت، دور خلت، مهج ذهبت، (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَهَدِ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رَكْزَ) (مريم/ 98). قال وزير شهير خطير كبير، عُزْل، ثم صُودِرَ، ثم حوسِبَ، ثم سُجن، ثم قتل، فلمّا خرجوا به إلى ساحة الإعدام، تبسّم ثم أنسد:

فمن كان عنِي سائلاً بشماتةٍ
فقد أظهرتْ مني الخطوب ابن حرة
ومن كان عنِي شاماً غير سائلٍ
صبوراً على أحوال تلك الزلازل

الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسم، فمن لا رأس له لا جسد له، ومن لا صبر له لا إيمان به.

هذا شاعر يفجع بأبنائه السبعة يموتون مرة واحدة فيطعنون سبع طعنات نجلاء ولكنّه يراجع الصبر ويثوب إلى الرشد، ويترنّم: وتجلدي للشّامتين أريهمُ أزّي لريب الدهر لا أتضعضعُ فهو الصمود والإصرار، والإباء والتحدّي للشامتين، وإظهار التجمل والسرور بالمدحور، والرضا بالقضاء، والتسليم للعزيز الحكيم. الطاعة لابد لها من صبر لتكون تماماً على الذي أحسن، وبالصبر يحسن أداؤها ويعظم إخلاصها، ويتجلّى صدقها، وبعدم الصبر تكون جسماً بلا روح، وصورة بلا مضمون، وألفاظاً بلا معانٍ. المعصية لا تُقاوم إلا بالصبر

لئلا تضعف النفس، ويختور القلب، وتقع الواقعة. فبالصبر لا تجد المعصية إلى القلب سبيلاً، ولا تقيم على خسّة الطبع دليلاً، بل تعود المعصية من حيث أتت، فينهازم شيطانُها المريد، ويخسأ إبليسها العنيد، وبعدم الصبر تقع النفس في وصر الخطيئة، وتندنس الروح بأحوال الذنب، لأنَّ النفس هزمت في مصاف المحاربة، وأسرت في فيلق المطالبة. المصيبة لا تواجه إلا بصبر لتخفِّ الوطأة، وتسهل الرزق، إذا عُدِمَ الصبر صارت المصيبة مصيبيتين، والنكبة نكبتين وإذا عدم الصبر زلزلت النفس زلزالها، وصاح نذير الهلع مالها؟! وإذا حصل الصبر حلَّ الأجر، ونبَل الذكر، وانشح الصدر، ويوم يحضر الصبر مع المصيبة، تصبح الخسائر أرباحاً، والمغامرة مغاناً، والأتراح أفراحاً. من أراد الحياة بلا صبر فقد أرادها على غير طبيعتها، ورآها على غير صورتها، فهو مستظل بالخيال صاحب أوابد وأمثال، فرَّ من اليقظة إلى المنام، ومن الحقائق إلى الأحلام. من عنده صبر فليدع الناس جانباً فقد حان نصرٌ، لأنَّ النصر مع الصبر، وقرْبَ فرجه لأنَّ الفرج مع الكرب، ودنا يسره لأنَّ مع العسر يسراً. ورد الصبر في القرآن على أضرب: أتى بصيغة الأمر والمدح له، ومدح الصابرين، وذكر أجراهُم عند ربهم، والإشادة بحسن فعلهم، وذكر سلام الملائكة عليهم، وصلوات الله ورحمته لهم، وعرض أوصافهم، فهم أهل حظ عظيم، ومهتدون، وفعلهم من عزم الأمور، فهنئاً لهم. الصابر يعيش بصبره في نعيم، والجائز يعيش بجزعه في جحيم، سجن الصابر جُنَاحَة، وبليتُه عطيَّة، ومحنته منحة، وفقره غنى، ومرضُه عافية. صبر آدم على مفارقة الوطن الأوّل من الجنة، وصبر نوح على فقد الولد، وصبر إبراهيم على مقام ذبح ابنه، وصبر يعقوب على فراق يوسف، وصبر موسى على أذى الطاغية، وصبر داود على مرارة الندم، وصبر سليمان على فتنة الدنيا، وصبر عيسى على ألم الفقر، وأما رسولنا (ص) فصبر عليها كلَّها، وعاشها كلَّها، وذاقها كلَّها، ففار بالمقامات كلَّها، صبر على فراق الوطن، ومراتع الفتوة، وملاءب المصبا، وربوع الشباب، فترك الأهل والعشيرة، والدار والمال، وصبر على فقد الولد، فسالت أرواح أبنائه بين يديه، وقعت أنفسهم أمام ناظريه. وصبر على ألم الأذى فأوذى في المنهج والوطن، والسمعة والخُلُق، والرسالة والزوجة. وصبر على شماتة العدو، وتنكر الصديق، وعقوق القريب، ونيل الحاسد، وتشفي الحاقد، وتألب الخصوم، وتكلُّب الأحزاب، وتكاثر المناوئين، وصولة الباطل، وقلة الناصر، وصبر على شطف العيش، وجفاف الفقر، ومضض الحاجة، وقلة ذات اليد، وجدب النفقة، وعزز المعيشة، وحرارة الجوع، ومرارة الفاقة. وصبر على غلبة الخصم، وقتل القريب، وأسر الحبيب، وتشريد الأصحاب، والتنكيل بالأتباع، والجرح في البدن، وفرع التهديد والوعيد، وقمعة الغارات، وأهوال الغزوات. وصبر على بطر الأغنياء، وزهو الكباء، وشراسة الأدعية، وجلافة الأعراب، وصلف الجهلة، وسوء أدب الجفاة. وصبر على خيانات اليهود، ومراؤة المنافقين، ومجابهة المشركين، وبطء استجابة المدعوين. ثمَّ صبر

على فرح الفتح، وسرور الانتصار، وجلبة إقبال الدنيا، وإذعان الملوك، واستسلام الجبارية، ودخول الناس في دين الله أفواجاً. صبر وهو يرى الكنوز تفرّغ في أوعية الناس فلم يأخذ منها درهماً واحداً. وصبر وهو يشاهد القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يتقاسمها الناس ولم يحمل منها قطميرًا. صبر وهو يحوز قطعان الإبل والبقر والغنم كالأكام، ثم يوزعها على مسلمة الفتح، ولم يطفر بحمل أو بقرة أو شاة وصبر على سكني بيت الطين، وعلى أكل الشعير، وعلى افتراس الحمير، وعلى ركوب الحمار، وعلى لباس الصوف. الأب مات ولم يره، والأم توفيت ولم تتم رضاعه، والجد فارق الدنيا ولم يحظه برعاية، والعم ذهب وقت النضال، وخدية ودّعت يوم الحزن، والابن سالت روحه يوم تمام الحب، وحمزة يُقتل زمن المقاولة. أنسٌ بالمدية فنَعْمَنَ عليه المنافقون أنسه، استبشر بالنصر في بدر فأسرعته غصة الألم في أحد، أزهـر وجهـه كالقمر ليلة البدر فـشـجـ بالـسـهـامـ، وتـلـلـاتـ أسـنـانـهـ كالـبـرـدـ فـكـسـرـتـ ثـنـيـتـهـ في المعركة، سـبـقـتـ نـاقـتـهـ الإـبـلـ فـسـبـقـهاـ أـعـرـابـيـ علىـ قـعـودـ، ليـبـقـيـ أـجـرـهـ فيـ الـآـخـرـةـ موـفـورـاـ، وـسـعـيـهـ عـنـدـ رـبـهـ مشـكـورـاـ، ولـيـلـقـىـ وـلـيـهـ وـمـعـيـوـدـ مـسـرـوـرـاـ، ليـجـتـمـعـ لـهـ الثـوابـ كـلـهـ، أوـلـهـ وـآـخـرـهـ، قدـيمـهـ وـحـدـيـثـهـ، فيـ مـقـعـدـ صـدـقـ عـلـىـ مـلـيـكـ مـقـتـدـرـ. وـاستـحـقـ ذـلـكـ لـأـنـهـ صـبـرـ فـلـهـ الـزـلـفـيـ، وـتـامـ الرـفـعـةـ، وـالـوـسـيـلـةـ، وـالـفـضـيـلـةـ، وـالـمـنـازـلـ الـجـلـيلـةـ، لـأـنـهـ صـبـرـ. وـلـهـ الـمـقـامـ الـزـلـفـيـ، وـتـامـ الرـفـعـةـ، وـالـوـسـيـلـةـ، وـالـفـضـيـلـةـ، وـالـمـنـازـلـ الـجـلـيلـةـ، لـأـنـهـ صـبـرـ. وـلـهـ الـمـقـامـ الـمـحـمـودـ، وـالـحـوـضـ الـمـورـودـ، وـالـلـوـاءـ الـمـعـقـودـ، لـأـنـهـ صـبـرـ. وـلـهـ الـشـفـاعـةـ، وـالـخـطـابـ، وـالـقـرـبـ، وـالـحـظـوةـ، لـأـنـهـ صـبـرـ. كـذـبـوهـ، شـتـمـوهـ، سـبـوهـ، آـذـوهـ، فـنـزـلـ (فـاصـبـرـ عـلـىـ مـاـ يـقـولـونـ) (صـ/ـ17ـ). حـارـبـوهـ، نـازـلـوهـ، شـرـدـوهـ، طـارـدـوهـ، قـاتـلـوهـ، فـنـزـلـ (وـاصـبـرـ وـمـاـ صـبـرـكـ إـلاـ بـالـلـهـ) (الـنـحـلـ/ـ127ـ). هـجـرـوهـ، وـأـعـرـضـوـاـ عـنـ سـبـيلـهـ، وـصـدـّـواـ عـنـ سـبـيلـهـ، وـوـقـفـواـ فـيـ طـرـيـقـهـ، فـنـزـلـ (فـاصـبـرـ صـبـرـ جـمـيـلاـ) (الـمـعـارـجـ/ـ5ـ). طـالـ عـلـيـهـ الـمـدـيـ، تـرـقـبـ الـنـصـرـ، كـثـرـ الـعـدـوـ، تـزـاحـمـتـ الـنـكـباتـ، فـنـزـلـ: (فـاصـبـرـ إـنـ وـعـدـ اللـهـ حـقـ) (الـرـوـمـ/ـ60ـ). ردـّـ عـلـيـهـ قـوـمـ أـقـدـعـ رـدـ، وـأـفـطـعـ جـوـابـ، وـأـبـشـعـ خـطـابـ، وـأـقـبـحـ مـوـاجـهـةـ، فـنـزـلـ: (فـاصـبـرـ كـمـاـ صـبـرـ أـولـوـ الـعـزـمـ مـنـ الرـسـلـ) (الـأـحـقـافـ/ـ35ـ). فـصـبـرـ (صـ) صـبـرـاـ جـمـيـلاـ فـيـ كـلـ مـقـامـ الـعـبـودـيـةـ، صـبـرـ فـيـ رـضـاهـ وـغـصـبـهـ، وـسـلـمـهـ وـحـرـبـهـ، وـغـنـاهـ وـفـقـرـهـ، فـصـارـ إـمامـ الـصـابـرـينـ، وـقـدـوةـ الـشـاكـرـينـ. اللـهـمـ ثـبـتـناـ عـلـىـ سـنـتـهـ، وـوـفـقـنـاـ لـسـيـرـتـهـ، وـانـصـرـ بـنـاـ دـعـوـتـهـ. ▶ المـصـدـرـ: كـتـابـ حـدـائقـ ذاتـ بـهـجـةـ تـنـكـرـ لـيـ خـصـمـيـ وـلـمـ يـدـرـ أـنـتـيـ

فيات يريني الخصم كيف عتوه
أعزٌ وأحداث الزمان تهونُ
وبيتٌ أربه الصبرَ كيف يكون